أم محمد

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم محمد

قال لي ولدي: ومن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم محمد، واسمها: الرُّبَيِّع بنتُ مُعَوِّذ، والدها يدعى: مُعَوِّذ بن الحارث وأمها: أم يزيد بنت قيس، أما زوجها فهو: إياس بن البكير من بني ليث، وقد أنجبت له محمد بن إياس.

قال: هلَّا أخبرتني متى أسلمت الرُّبيع يا أبي؟

قلت: كانت الربيع واحدة من الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة: ١٠٠].

وقد أبلى والدها معوِّذ وعمَّاها عوف ومعاذ أبناء الحارث، وأمهم عفراء، يوم «بدر» أحسن البلاء.

فلما اصطف الجمعان، برز ثلاثة من المشركين وهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، ونادوا من يبارزهم من المسلمين، فخرج إليهم عوف ومعوِّذ وعبد الله بن رواحة شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر رسول الله ﷺ في الإسلام، بعد أن هداه الله إلى الحق والرشاد، فقيل لهم: من أنتم؟

قالوا: فتية من الأنصار! فقالوا لهم: لا حاجة لنا بكم، ثم نادوا رسول الله ﷺ: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا علي بن أبي طالب**». فلما دنوا منهم وعرَّفوهم بأنفسهم قالوا: نعم، أكفاء كرام!

وتمت المبارزة فَقَتَلَ حمزة صاحبه شيبة وقتَلَ عليٌّ صاحبه الوليد، وأما عبيدة وعتبة فقد تبادلا ضربتين، وقطعت رجل عبيدة وجرح عتبة جرحاً بليغاً منعه الحركة، فأسرع إليه حمزة وعلي فقتلاه.

أما معوذ وأخوه فقد قتلا أشقى قريش أبا جهل ثم ظلَّا يقاتلان حتى قتلا، ولما بلغ رسول الله ﷺ استشهادهما قال:

«**رحم الله ابني عفراء اشتركا في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر**» فقيل: يا رسول الله من قتله معهما؟ قال: «**الملائكة**»، وذفَّفه ابن مسعود ـ أي أتَمَّ قتله ـ ثم إن ابن مسعود رضي الله عنه احتزّ رأس أبي جهل وحمله إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال رسول الله ﷺ: «**الله الذي لا إله غيره؟**» ـ وكانت يمين رسول الله ﷺ ـ قال ابن مسعود: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقى برأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحمد الله.

وكان ترحُّم رسول الله ﷺ على ابني عفراء بعد نيلهما الشهادة خير وسام يوضع على صدريهما، فقد جادا بنفسيهما ـ في سبيل الله ـ والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

قال: وماذا صنع إياس بن البكير زوج الرُّبيع يا أبي؟

قلت: كان إياس من كبار المهاجرين الذين جاؤوا إلى المدينة فراراً بدينهم، وقد شهد رسول الله ﷺ زواجه من الرُّبيع ولْنَدَعِ الرُّبيع تروي لنا ما حدث يومئذٍ، عن خالد بن ذكوان قال:

قالت الرُّبيع بنت معوذ بن عفراء: جاء النبي ﷺ فدخل عليَّ حين بُنيَ عليَّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن مَن قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال رسول الله ﷺ: «**دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين**».

واعلم يا بُني أن الرسول إنما بعث لإرشاد الناس وتوجيههم إلى الحق وإلى طريق مستقيم جزاه الله عنا وعن الصحابة والمسلمين أجمعين خير الجزاء، وخير ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته.

إن زيارته ﷺ لأصحابه كانت جبراً لمصائبهم وترطيباً لخواطرهم وبلسماً لقلوبهم.

وقد خلدت زيارة رسول الله ﷺ للربيع ليلة زفافها أجمل ذكرى، ستظل راسخة في ذاكرة الزمان، وقد لمست الربيع بركتها حتى أصبحت من أهل القبور.

غير أن الحياة بين الرُّبيع وزوجها إياس لم تتسم بالوفاق والوئام، بل كان يعتريها الشقاق والخصام، ولما أصبح بقاؤها معه مستحيلاً قررت أن تفارقه على الرغم من إنجابها ولداً له سمياه: محمداً.

وها هي ذي تروي ما حدث فتقول: كان بيني وبين ابن عمي كلام ـ وهو زوجها ـ فقلت له: لك كل شيء لي وفارقني، قال: قد فعلت، قالت: فأخذ والله كل شيء كان لي حتى فراشي، قالت: فجئت عثمان بن عفان ﷺ، فذكرت ذلك له، وقد حُصِرَ، فقال: الشرط أَمْلَكُ، خذ كل شيء لها حتى عُقاص رأسها إن شئت.

وهكذا كان الفراق خير وسيلة، بل الحل الأمثل لإنهاء حالة الشقاق الذي ساد حياتهما، ومنعهما الاستقرار والهناء، والسكينة والصفاء.

قال: ليتك تحدثني عن فضل الربيع يا أبي، وعن علمها!

قلت: لقد نهلت الرُّبيع من نبع النبوة الدفَّاق، وحَصَّلت من مدرسة المصطفى ﷺ من الفقه والعلم ما جعلها أهلاً لرواية حديثه ﷺ، حتى كان كبار الصحابة يقصدونها لسؤالها عن أشياء سمعتها أو رأتها من رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يزور أم محمد الرُّبيع صلة لرحمها، كما روى الإمام الذهبي، وقد روي أن ابن عباس ﷺ أتاها وسألها عن وضوء رسول الله ﷺ؛ لأنها راوية صفة وضوئه.

وجاء في سنن أبي داود عن محمد بن عقيل عن الرُّبيع بنت معوذ بن عفراء قالت:

كان رسول الله ﷺ يأتينا، فحدثتنا أنه قال: «**اسكبي لي وَضوءاً**»، فذكرت وضوء رسول الله ﷺ، قالت فيه: فغسل كفيه ثلاثاً، ووضَّأ وجهه ثلاثاً، ومضمض، واستنشق مرة، ووضَّأ يديه ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه مرتين يبدأ بمؤخر رأسه ثم

بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضَّأ رجليه ثلاثاً ثلاثاً.

وكانت الرُّبيع تتمتع بذكاء وافر، وعقل راجح، يضاف إلى ذلك حافظة قوية تحفظ كل ما تلتقطه، وقد هيأت لها زيارات رسول الله ﷺ لبيتها وترددها على بيته أن تحفظ عنه العديد من أحاديثه الشريفة.

وقد روى أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للرُّبيع بنت معوذ بن عفراء: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت: يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

فللَّه دَرُّك يا أم محمد، ما أجمل ما وصفت به سيد البشر وخاتم المرسلين ﷺ! وما أبلغه! إنه لوصفٌ يبدي كم لرسول الله ﷺ من الفضل على الناس الذين اتبعوه، وآمنوا بما جاء به وصدقوه، وكم جنى أصحابه من الخير بهذه الصحبة الكريمة!

وكانت الرُّبيع تحب من يحب رسول الله ﷺ، وتبغض من يبغضه ويؤذيه أو يريد به الشر، ويضمر له الضر، وكانت ثَمَّ في المدينة امرأة تبيع العطر يقال لها: أسماء بنت مُخَرِّبة من بني مخزوم، فجاءت مرة مع بعض النسوة لتزور الرُّبيع وتعرض عليها عطرها، وجرى بينهما حوار، فقالت لها أسماء: أنت ابنة مَن قتل سيده ـ تريد بذلك أبا جهل ـ فردت عليها الرُّبيع بقولها: بل أنا ابنة من قتل عبدَه، فغضبت أسماء وقالت لها: إني لن أبيعك شيئاً من عطري بعد اليوم، لكن الرُّبيع ردت عليها بما ملأ صدرها غيظاً وقالت: وأنا لن أشتري شيئاً من عطرك النتن.

قال: كم حديثاً روت الرُّبيع عن رسول الله ﷺ يا أبي؟ ومن مِنَ العلماء روى عنها أحاديث رسول الله ﷺ؟

قلت لولدي: روت الرُّبيع واحداً وعشرين حديثاً عن رسول الله ﷺ وروى عنها: خالد بن ذكوان، وأبو عبيدة محمد بن عمار بن ياسر، وعائشة بنت أنس بن مالك، وعبد الله بن محمد بن عقيل، وسليمان بن يسار.

وقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن خالد بن ذكوان عن الرُّبيع بنت معوذ أنها قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «**من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه**»، **ومن أصبح صائماً فليصم**»، قالت: فكنا نصومه ونُصوِّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العِهْن ـ أي: الصوف ـ فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار.

وقد تيسرت للربيع حصيلة علمية وفقهية وذلك عن طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد كانت كثيرة الزيارات لها والتردد عليها، ولا يخفى أن أم المؤمنين كانت موسوعة كبرى في الفقه والحديث والعلم، استفاد منها رجال المسلمين ونسوتهم على حد سواء.

قال: ألا تحدثني يا أبي عن جهاد أم محمد؟

قلت: بلى يا بني، إن اهتمام الرُّبيع بالعلم والفقه، والفضائل الكثيرة التي كانت تتمتع بها، لم يشغلها عن الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونصرة دينه.

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوِّذ رضي الله عنها، قالت: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ نسقي القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

وكان هذا شأن نساء الأنصار اللواتي كن يخرجن مع رسول الله ﷺ وفي طليعتهن أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها، وأم عمارة رضي الله عنها، غير أن هاتين الأخيرتين كانتا إذا اشتد القتال أوسعتا جنود العدو ضرباً وتقتيلاً، ومن ينسى ما صنعته أم سليم يوم حنين، وما فعلته أم عمارة يوم أُحُد ويوم اليمامة في الوقت الذي تخلى فيه الرجال عن واجبهم، وجبنوا عن لقاء المشركين.

ولقد كان، أبوها وأعمامها بنو عفراء قد شهدوا «بدراً» وفازوا بالجنة، نِعمَ دار المتقين، حيث اطلع الله على أهل بدر ومنحهم أعظم البشريات فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة**». أخرجه البخاري في المغازي من صحيحه.

وكانت أم محمد لا تُفْتَقَدُ في ساعات تُوَزَّع فيها المكرمات، وتفيض فيها البركات، فقد كانت في السنة السادسة للهجرة واحدة من النساء اللواتي بايعن رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وكان عدد من شاركوا في تلك البيعة المباركة ألفاً وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، كما ذكر جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، ففازوا بمرضاة الله وأصبحوا في أمانٍ من عذابه.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢٠].

ولقد كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة مكرمة عظيمة لجميع من حضرها، حيث قال لهم رسول الله ﷺ يومها: «**أنتم خير أهل الأرض**» كما أخرجه البخاري، فهنيئاً للرُّبيع وللمؤمنين والمؤمنات الذين نالوا هذا الشرف الرفيع، الذي رصَّع صدورهم أجمل ترصيع، ومحال لمن أخلص عمله لله أن يضيع.

وقد أخرج الإمام أحمد بن حنبل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»، وكانت تلك المنة من الله لهؤلاء المؤمنين؛ لأنهم نصروا رسوله ﷺ، وصبروا في جهاد عدوه، وأخلصوا دينهم لله، فكانت الجنة مثوبتهم، والمغفرة أجرهم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه بشارة أخرى من رسول الله ﷺ لأهل بدر والحديبية معاً، فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكوه إلى رسول الله ﷺ ويقول: لَيَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار، فقال له الرسول ﷺ: «**كذبت لا يدخُلُها، شهد بدراً والحديبية**».

فهنيئاً لأهل بدر ولأهل الحديبية، سواء منهم من بقي حيّاً أم كان من المستشهدين، وإن وعد الله حق، وإن بشرى رسول الله ﷺ صدق؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، وما قوله إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى.

قال: وكيف كان كرم أم محمد يا أبي؟

قلت: إن المؤمن الصادق كريم بطبعه يا بني، والبخل

والشح ليسا من أخلاق المؤمنين، ذلك لأن المؤمن محب لله ولرسوله ﷺ، وهو لهما مطيع، ولما كان البخل والشح صفتين ذميمتين فإن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ لا يحبان من تخلَّق بهما.

وقد وعى الأنصار والمهاجرون ذلك فأخذوا يتنافسون في البذل والسخاء في سبيل الله أو تكريم نبيه ﷺ أو في حاجات المؤمنين، الفقراء والمساكين، لذا كانت أم محمد لا تألو جهداً ـ لا تقصر ـ في إدخال السرور على رسول الله ﷺ بين الحين والآخر، وكان ﷺ يرد على مَن يهديه بأحسن مما أهداه وأفضل، واسمع ما أخرجه الطبراني لتعلم أن سخاء رسول الله ﷺ وبذله منقطع النظير.

عن الرُّبيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: بعثني معوذ بن عفراء بصاعٍ من رطبٍ ـ تمر ـ عليه أَجْرٍ من قِثَّاء ـ صغار القثاء وعليها الوبر ـ إلى رسول الله ﷺ ـ وكان النبي ﷺ يحب القثاء، وكانت حليةٌ قد قدمت من البحرين، فملأ يده منها فأعطانيها.

وفي رواية: فأعطاني ملء كفيَّ حَلْياً أو ذهباً، وزاد أحمد فقال: تحلي بهذا.

فهل سمعت بمثل هذا الكرم عن غير أكرم المرسلين يا بُنَي؟

لقد كانت الرُّبيع بنت معوذ مثلاً يُحتذى بين النساء، ولعل كثيراً من الرجال قصَّروا عن فضلها وعلمها، وجودها، وجهادها، وحبها للخير، ومساعيها الجمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابتغاء مرضاة الله، وكان التقرب إلى اللَّه

غاية ما تسعى إليه، سواء أكان عن طريق الصيام أم القيام والناس نيام، أم الصدقة، أم الجهاد، إنها مجبولة على الخير، قال الشاعر ابن أبي سُلمى:

ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ
وإن خالها تُخفى على الناس تعلم

وظلت الربيع مثابرة على طبعها حتى أدركتها المنية سنة خمس وأربعين للهجرة في عهد معاوية رضي الله عنه، رحمها الله وجعل مثواها الجنة.

obeikandl.com